

I

الطرق في آسيا الوسطى (*)

ألكسندر بنغسين

قد يبدو غريباً، وفي الاتحاد السوفياتي تحديداً، حيث تدعي السلطات منذ أكثر من نصف قرن، بناء مجتمع جديد متحرر كلياً من التعصب وخرافات الماضي، وتالياً من الدين، أن تكون الصوفية في أوج انتشارها، وإن تمثل حالياً قوة ليست روحية فحسب بل سياسية ايضاً، أكثر تأثيراً مما كانت قبل الثورة، عكس ما يبدو.

وعلى غرار ما جرى في القرن الثالث عشر عندما دمر الغزو المغولي في آسيا الوسطى «المؤسسة» الاسلامية الرسمية، فصانت الصوفية دين الرسول ﷺ

(*) من طاولة مستديرة حول «الطرق الصوفية في الاسلام، تعرجاتها ووضعها الراهن». عقدت في باريس يومي ١٣ و١٤ ايارمايو ١٩٨٢ تحت رعاية مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بالتعاون مع المركز الوطني للبحث العلمي. المداخلات والاوراق التي قدمت والتي تغطي كل مناطق العالم الاسلامي، نشرت لاحقاً في كتاب يحمل عنوان الندوة:

Les Ordres Mystiques dans l'Islam, Cheminements et Situation actuelle.

Travaux publiés sous la direction de A. Popovic et G. Veistein.

Editions de l'Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales. Paris. 1986.

مداخلتنا Chantal Lemercier Quelquejay, Alexandre Bennigsen تناولتا المراحل الرئيسية لتمرکز الطرق في آسيا الوسطى ثم في شمال القوقاز، لكنها ركزت على تحليل العلاقات بين الطرق الصوفية والنظام السوفياتي. وترجم المقالين ميشال نوفل.

عبر تجذيره في الجماهير الشعبية، ساعدت الماركسية - اللينينية في القرن العشرين في توسع الطرق الصوفية.

من زاوية تطور الطرق، يشتمل الاتحاد السوفياتي على ٣ مناطق مختلفة هي آسيا الوسطى، وشمال القوقاز ومنطقة الفولغا الوسطى. المنطقة الثانية ستطرق إليها السيدة لومرسية كيلكوجيه. أما في بلاد التتار في الفولغا الوسطى، فقد اضطلعت الطرق (الياسوية ثم النقشبندية) بدور مهم في حركة التجديد الاصلاحية أواخر القرن التاسع عشر، لكننا لا نملك أي معلومة حديثة في هذا الشأن، فيما يبدو أن الطرق تنزع إلى الانحطاط في هذه المنطقة.

يتعين أولاً، ابداء بعض الملاحظات التمهيدية العامة التي تنطبق على آسيا الوسطى وشمال القوقاز في آن.

إن الاتحاد السوفياتي من الناحية الرسمية هو دولة ملحدة يفترض في أي دين فيها - بما في ذلك الاسلام - أن يزول عاجلاً أم آجلاً. لكن نسجل لفهم الوضع الراهن جيداً، أن ثمة اختلافاً كبيراً في الموقف بين الدولة السوفياتية والحزب الشيوعي.

الدولة متساهلة نسبياً، ومحايده نسبياً. والدستور يضمن حرية العبادة (ضمن حدود اللياقة والاخلاقية والنظام العام) وحرية الدعاية المناهضة للدين. لكن الدعاية الدينية محظورة على نحو شديد في ما يختص بالاسلام، كذلك النشاط الديني خارج المسجد. الدولة منفصلة عن الكنيسة، والمدرسة منفصلة عن الكنيسة.

في المقابل، يعتبر الحزب الشيوعي ان الدين من مخلفات الماضي، الماضي السابق للاشتراكية، وتالياً الماضي المشؤوم الذي يتعين أن يزول بصفته هذه. التسامح ليس وارداً، والدين يجب أن يدمر. هذه هي النظرية.

أما من الناحية العملية، فقد تم دمج الكنائس في الاتحاد السوفياتي ومنها الاسلام منذ ١٩٤٣ في جهاز الادارة السوفياتية. وصارت هذه الكنائس

«مدجنة» وباتت في الواقع «دوائر وزارية» (لاعطاء صورة مبسطة لكن ربما مغالية قليلاً).

يضم الاسلام الرسمي ٤ مديريات روحية مع ٤ دور للافتاء في طشقند وأوفه وبويناكسك وباكو، وهو تحول في ظل حكم بريجنيف شريكا للدولة يجري معها مساومة معقدة ويقدم إليها العون على المستويين الداخلي والخارجي: في الخارج يذبلج عملية التعريض والدعاية ليعكس على العالم الاسلامي الأجنبي صورة لاتحاد سوفياتي صديق للاسلام؛ في الداخل، وبنجاح أقل، يفترض أن يؤمن ولاء المؤمنين للنظام. وهكذا، يضبط الاسلام الرسمي علماء الدين الذين يقارب عددهم الالفين، ويدير المساجد الـ ٤٠٠ المفتوحة والمدريستين العاملتين الوحيدتين بالنسبة الى جمهور من المسلمين يراوح بين ٤٧ و ٥٠ مليون شخص. ويؤمن اخيراً صدور مطبوعة دينية دورية واحدة هي «المسلمون في الشرق السوفياتي» التي ليست في متناول المؤمنين كونها تصدر باللغات الاوزبكية (التي تكتب بالأحرف العربية) والفارسية والفرنسية والانكليزية.

لا جدوى من التشديد على الجانب الشكلي لهذا الاسلام الرسمي. هو بالتأكيد مفيد للحكومة السوفياتية على الصعيد الخارجي لكنه عاجز تماماً عن تلبية الحاجات الروحية الأولية للمؤمنين. وإذا كان دين الاسلام قد صمد كعقيدة وغط حياة وممارسة دينية، فإنما بفضل الطرق. وتؤكد كل المصادر السوفياتية الحديثة جداً (تحقيقات السوسيولوجيا الدينية خلال السبعينات والثمانينات) أن نسبة الملحدين عند المسلمين هي في المتوسط ما دون الـ ٢٠ في المئة من العدد الاجمالي للسكان (في مقابل ٨٠ في المئة عند المسيحيين) الذين يمكن توزيع الـ ٨٠ في المئة منهم على فئات متباينة من المؤمنين: متعصبون تقليدياً؛ مترددون، غير مؤمنين يمارسون الشعائر. ويرواح متوسط ما تسميه المصادر السوفياتية «المؤمنين المتعصبين» الذين يشكلون القوة الناشطة دينياً، بين ١٥ و ٢٠ في المئة بحسب المناطق، ويرجع ان اعضاء الطرق يشكلون السواد الاعظم لهؤلاء «المتعصبين».

ويعتبر القانون السوفياني أن «الاسلام الموازي» (على شكل الطرق) هو غير شرعي. ذلك أن الطرق الصوفية تخالف الكثير من احكام القانون الجزائري لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، والقانون الجزائري للجمهوريات المسلمة التي تتبع هذا القانون بهذا القدر أو ذاك:

١ - القانون الخاص بالجمعيات السياسية (المادة ١٥٦ من القانون الجزائري لاوزبكستان الذي يعتمد نموذجاً للجمهوريات الأخرى): «وحده الحزب الشيوعي يتمتع بوجود شرعي»؛ «إذا تأسست جمعية سياسية بهدف قلب سلطة السوفيات، فإن جزاء اعضائها يكون عقوبة الموت».

٢ - القانون الخاص بالعبادات (المادة ١٥٩ من القانون الجزائري لاوزبكستان): السجن سنتين لمن ينتمي إلى جمعية غير مسجلة رسمياً (عقوبة تطاول اماكن الصلاة السرية).

٣ - القانون المتعلق بالدعوة الدينية (المادة ١٥٧ من القانون الجزائري لاوزبكستان): الحكم بالسجن ٣ سنوات على من يشجع «الخرافات». وتصير العقوبة أكبر إذا تعلق الأمر بأولاد.

٤ - القانون الخاص بفصل المدرسة عن الكنيسة: عقوبة السجن سنتين بالنسبة إلى المدارس الدينية السرية.

إلى ذلك، تعتبر غير شرعية وتقع تحت طائلة القانون الجزائري الأوزبكي النشاطات التالية: «الكهنوت المتشرد»؛ الحج إلى الأماكن المقدسة؛ إعادة طبع الادبيات الدينية وتوزيعها.

بناءً عليه، تعتبر الطرق في الاتحاد السوفياني جمعيات غير شرعية وعرضة للملاحقة، لكن المفارقة هي أنها غير سرية. ليست ممثلة في كل الجمهوريات المسلمة في الاتحاد السوفياني، ولا تتميز بالحيوية إياها في كل مكان. ومثل هذه الحيوية تتوقف على عوامل عدة منها ٣ تتسم بأهمية خاصة:

١ - طابع الغزو الروسي، وطابع المقاومة التي كان على الغزاة التغلب

عليها، خلافاً لما جرى في القوقاز، أمكن إخضاع آسيا الوسطى سريعاً، ومن دون مقاومة تذكر. ولم تتمكن الطرق من تولي الدور القيادي في المقاومة، باستثناء النقشبندية في انتفاضات شيرشيك (١٨٧٢) وغوك تيبى (١٨٧٩ - ١٨٨١) وانديجان (١٨٩٦).

٢ - البنية الاجتماعية. للسكان المسلمين. فقد عرف الاتحاد السوفياتي منذ ثورة ١٩١٧ تداخلاً عميقاً بين الطرق والعشائر. الطرق تتميز بلا مركزية قوية. وكل مجموعة صوفية فرعية تجدها محدودة بعشيرة على نحو متفاوت من الشدة (أو فخذ من عشيرة)، بل تقتصر في بعض الأحيان، لا سيما في القوقاز، على عائلة واحدة متماسكة. ومثل هذا الوضع يؤمن لأعضاء الطرق حماية متزايدة نتيجة الولاء المزدوج المطلوب. واليوم، تتسم الطرق بحيوية خاصة حيث حافظ المجتمع الاسلامي على بنية عشائرية: هذه الحال تنطبق في شمال القوقاز على جمهورية تشيتشينيا - انغوش وعلى داغستان؛ وهي حال تركمانستان وقرغيزيا والاوزبيك العشائريين في آسيا الوسطى؛ والغريب أن هذه المناطق كانت موطناً للبداءة الضاربة في التاريخ، وكانت المناطق «الأقل أسلمة» حتى الثورة.

٣ - نشاط الاسلام الرسمي أو غيابه. إذ يمكن ملاحظة حقيقة أن الطرق تبدو ناشطة وحيوية حيث الاسلام الرسمي يكون جينياً: في تركمانستان توجد ٤ مساجد للمليون نسمة؛ في قرغيزيا تقوم كل المساجد في الجنوب ولا اثر لها في الجزء الشمالي؛ في تشيتشينيا لم يفتح اي مسجد بين ١٩٧٣ و ١٩٧٨. لماذا؟ هل أن غياب المؤسسات الاسلامية الرسمية يشجع انتشار الصوفية، أم أن الطرق خلافاً لذلك تنشط حيث الاسلام الرسمي في تراجع؟ المصادر السوفياتية تقدم هذين التفسيرين المتناقضين. في كل مكان في الاتحاد السوفياتي نشهد منذ ٢٠ عاماً أنبعاث الأصولية الاسلامية (في موازاة حركة الاخوان المسلمين أو الخمينية). وقد التقت الطرق هذه الحركة نتيجة لظروف خاصة، وبات تاريخها جزءاً لا يتجزأ من الحركة الثورية الأصولية. والطرق هي التي توفر لها تماسكها، في حين تضيف حركة «الرفض» على الطرق هيبتها وايدولوجيتها.

هذا هو الوضع العام للطرق الصوفية في الاتحاد السوفياتي.

إذا كانت المعلومات وفيرة في شأن شمال القوقاز، فإن ما يقابلها بالنسبة إلى آسيا الوسطى ليس كذلك. ويتعين بالطبع، الاستناد حصراً إلى المصادر الرسمية السوفياتية، علماً أنها شديدة العداء للطرق الصوفية.

لذلك ستكون الملاحظات المستقاة منها مباشرة، عرضة للأخذ والرد.

١ - تموضع الطرق:

تشير المصادر السوفياتية إلى نشاط الطرق الصوفية في ٤ مناطق (يُرد ذكرها وفقاً لترتيب يأخذ في الاعتبار أهمية نشاطها):

أ - بلاد التركمان حيث البنية القبلية للمجتمع لا تزال حقيقة اجتماعية وسياسية. وثمة ٥ قبائل تلعب دوراً خاصاً بين قبائل التركمان؛ وهي «القبائل المقدسة»: أولاد خوجا؛ شيخ، سيد؛ أتا؛ ومدجوير. وتزعم هذه بأنها تنتمي إلى بيت الرسول ﷺ أو الخلفاء الثلاثة الأولين، وتوفر مشايخ بالوراثة (ايشان) لكل الطرق الصوفية. ويحافظ جميع أفراد قبيلة أولاد خوجا على هبة غير منقوصة، وتشهد على ذلك طرفة جوكي اشاباد التي ينقلها الاختصاصي السوفياتي ديميدوف (الجوكي العضو في إحدى الطرق الصوفية كان يفوز بكل السباقات).

ب - الجزء الجنوبي من قرغيزيا الذي يوازي الجزء الشرقي من وادي فرغانة، وحيث العشائر تتمتع بوجود قوي حتى الآن.

ج - الطرف الجبلي الشرقي والجنوبي من أوزبكستان (منطقة بدادة قديمة لدى قبائل اللوكاي)، وكذلك كل أنحاء بلاد الطاجيك.

هذه المناطق الثلاث هي أيضاً تلك التي حققت فيها حركة الباسماتشي (١٩٢٠ - ١٩٢٨) أفضل النتائج. وتكشف مصادر سوفياتية حديثة، أهمية الدور الصوفي في هذه الحركة (المسلحة المناهضة للبلاشفة).

د - الجزء الجنوبي من كازاخستان: مناطق سيرداريا وألما أتا ودجبول.

غير أن المصادر السوفياتية تبين أن خريطة الطرق منذ الحرب ليست

سكونية. بل تتبدل باستمرار بحيث يبدو أن الصوفية تتمدد في اتجاهين: نحو بلاد الكازاخ (من الجنوب إلى الشمال)، ونحو المدن (من الأرياف إلى المدن).

٢ - تعدد الطرق:

هناك ٤ طرق صوفية في آسيا الوسطى بينها ٣ طرق محلية، بينما الرابعة استقدمت من الخارج (مرتين)، وهي:

أ - الكبراوية لمؤسسها نجم الدين كبرى (قتل على أيدي المغول في اورغينتش) الذي يقع ضريحه في مدينة اورغينتش. انتشارها محصور تماماً بشمال بلاد التركمان (خوارزم) وبلاد القراكلبك. ذكرها جلي.

ب - الياسوية لمؤسسها أحمد ياسوي (المتوفى في ١١٦٧). ضريحه في مدينة تركستان (مدينة ياسي سابقاً) جنوب كازاخستان. وكان أحمد ياسوي تلميذاً ليوسف همداني (ضريحه في بيرم علي). أما مريدوه فكانوا يمارسون الذكر الجلي، لكنهم تحولوا اليوم إلى الذكر الخفي طلباً للتقية. المركز الحالي للياسوية يقوم في وادي فرغانة، والتجنيد يجري في صفوف الأوزبيك والقرغيز والطاجيك والكازاخ.

وانبثق من هذه الطريقة التي كانت حتى ١٩١٧ روحانية وليست سياسية، فرعان ميسسان غاية التسييس: اللاشي والایشان ذوو الضفائر.

ج - النقشبندية أسسها بهاء الدين النقشبندي (المتوفى في ١٣٨٨) وضريحه في بخاري. إنها الطريقة الأكبر عدداً وتضم مريدين في كل أنحاء آسيا الوسطى. ذكرها خفي.

وقد أعطت هذه الطريقة في القرن التاسع عشر زعماء الانتفاضات القليلة المناهضة للروس خلال حركات التمرد التي شملت تشيرتشيك وغوك تيبى، كذلك أعطت الكثير من زعماء حركة الباسماتشي في ظل النظام السوفياتي.

د - القادرية وهي طريقة قديمة من بغداد، أسسها عبد القادر الجيلاني المتوفى في ١١٦٦. ذكرها جلي. عرفت توسعاً مزدوجاً في آسيا الوسطى: المرة الأولى في

العصر الوسيط خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ضمن الحدود الحالية لطاجيكستان واوزبكستان وكازاخستان؛ والمرة الثانية أواخر الحرب العالمية الثانية بفضل المبعدين من التشتيشين الى كازاخستان الجنوبية، تحت اسم «كونتا حاجي» أو أهل الذكر.

وفي الخمسينات تأسس في كازاخستان الفرع الأخير للقادرية الأكثر تشدداً: طريقة الحاج عويس. وعندما أعيد الاعتبار إلى القوقازيين خلال الستينات وعادوا إلى موطنهم (قبل أن يحصلوا على إذن بذلك)، بقيت في كازاخستان مجموعات قادرة من الكازاخ والقوقازيين، ومن هنا انتشرت في شمال قرغيزيا واوزبكستان.

لكن عندما يجري الكلام على الطرق الصوفية في آسيا الوسطى، يجب التنبيه من الانجرار في تعظيم الاختلافات بين مسالك الصوفية هناك.

خلافاً للقوقاز، تشهد آسيا الوسطى منذ قرن (منذ الغزو الروسي، بل منذ ثورة ١٩١٧)، ظاهرة تقوم على انصهار الطرق في بوتقة واحدة. ويجري الذكر على نمط واحد، ويحدث أن يمارسه النقشبنديون مع الانشاد، في حين يعتمد الآخرون، خصوصاً الياسويون، الذكر الخفي من باب الحيلة الأمنية. لكن الاختلافات تتلاشى إلى درجة انصهار الطرق المختلفة في النهاية، بحيث لا يعود المريدون يعرفون جيداً إلى أي طريقة ينتمون. والاستثناء الوحيد هو أولئك الذين ينتمون إلى القادرية «الجديدة»، والذين يختلفون كثيراً عن الآخرين ويجتنبون الاختلاط، بل يعتبرون أنه لا توجد سوى طريقة واحدة هي الايشانية. وهذه لفظة كانت تستخدم قبل ١٩١٧، وتجري على الألسن اليوم أكثر فأكثر.

إلى جانب الطرق الأربع المذكورة أعلاه، هناك ما يسميه المؤلفون الروس والسوفييات طريقة الكلنديرين المؤلفة من «متشردين» هم في منزلة الوسط بين الدرويش والشامان، لكن لا يشكلون طريقة بالمعنى الحقيقي للكلمة. ومركز هؤلاء هو مزار الشيخ صفا في سمرقند.

أخيراً، لا يزال هناك حتى الآن شامانيون حقيقيون في قرغيزيا وتركمانستان وطاجيكستان (إنما يجب الحذر من المصادر السوفياتية التي تحاول إبراز الجانب الشاماني في الطرق). وهؤلاء أطباء مشعوذون تقليديون يحاكون بعض ممارسات الصوفيين، لا سيما عبر استخدام الصلوات بالعربية.

٣ - التجنيد والحيوية :

الانتساب إلى الطرق في آسيا الوسطى، يجري في آن وسط سكان الأرياف وأهل المدن، وفي صفوف العمال والمثقفين. وبحسب المعطيات السوفياتية الحديثة، صرح ٥٠ في المئة أنهم يريدون بالوراثة، وقال ٢٥ في المئة أنهم استجابوا الدعوة، وامتنع ٢٥ في المئة عن الرد.

وقد جندت الاكثريّة في إطار الروابط القبلية المسماة أهل القران (اوزبكستان).

وتظهر حيوية الطرق في آسيا الوسطى في ولادة جمعيات جديدة، أو تحول طرق قديمة تجمعات ترتدي في آن طابع الطريقة الصوفية والحزب السياسي السري. وتبرز ٣ طرق رئيسية في هذا السياق، هي اللاشي، والايشان ذوو الصفائر، والحاج عويس (ربما هناك المزيد منها، لكن المصادر الوحيدة لمعلوماتنا هي المصادر السوفياتية وهذه لا مصلحة لديها في إبراز التأثير الذي تمارسه الصوفية على الجماهير). وتكاد تكون الطرق الثلاث هذه أشبه بالبدعة لكون انصار كل منها لا يرون مكاناً لغيرهم في الجماعة الاسلامية، معتبرين المسلمين الآخرين من الضالين (أو حتى من الكفار).

أ - اللاشي تمثل طريقة منشقة عن الياسوية. تأسست حوالي العام ١٨٨٠ على يدي الشيخ سانيفار الذي شنقه خان قوقنه لاحقاً باعتباره صاحب بدعة. وترى اللاشي أن «جميع الذين يتعاملون مع سلطة الكفار هم من الكافرين». وتشابه هذه الطريقة، طريقة جندالله لفايسوف المنشقة عن النقشبندية، والتي أسسها حوالي ١٨٨٠ بهاء الدين فايسوف في قازان.

ب - الايشان أصحاب الضفائر. تأسست هذه الطريقة خلال العامين ١٩١٨ - ١٩٢٠ على يدي رجل يدعى ابو المطلب ساتيالديف (من الباسماتشي)، وهي ترتبط بالياسوية. وخلال الحرب الأهلية اتبع الايشان نهجاً مخالفاً للاشي ولعبوا دوراً مهماً في حركة الباسماتشي. ويقول ممبتياليف أن كثيرين من قادة الباسماتشي كانوا من اتباع هذه الطريقة...

وانتقلت هذه الطريقة منذ ١٩٢٨ إلى السرية بعدما اتهمت بالقيام بنشاطات معادية للسوفييات بسبب رفضها الخدمة العسكرية. وأعلن في ١٩٣٥ أن اعضاءها «افتضح أمرهم أو تمت تصفيتهم». ثم أعيد اكتشافهم خلال العام ١٩٥٢ - ١٩٥٣، وفي أواخر الستينات تعرض زعمائهم للملاحقة واعدموا بتهمة «الارهاب». ولا يزال نشاطهم اليوم سرىاً، كونهم يمارسون الكتمان (أو التقية).

وللايشان وجود في كل أنحاء وادي فرغانة، خصوصاً الجزء القرغيزي من الوادي، كذلك في الجانبين الاوزبكي والطاجيكي. وتندد مصادر سوفياتية حديثة بـ «نشاطهم الاجرامي».

ج - جماعة الحاج عويس التي تطلق عليها تسمية «القلنسوات البيض». وهي فرع من القادرية تأسس في الخمسينات على يدي عويس زاغيف وهو من التشيشين، لمصلحة ابناء تشيتشينيا - انغوش المنفيين، ثم انتشرت بين الكازاخ. هذه الطريقة أصولية لكنها ترفع التشدد إلى درجة تصبح معها طائفة منعزلة عن بقية المسلمين: المريدون لا يأكلون مع الآخرين؛ يمارسون الزواج الملحومي؛ يرفضون المدرسة والخدمة العسكرية ويمتنعون عن دفع الضرائب. يلاحقون كمجرمين. ويتلازم ذكرهم الجلي مع الرقص والعزف على الكمان. انتقل مريدو الحاج عويس، في مناسبة عودة المنفيين إلى مسقط رأسهم (في القوقاز)، إلى بلاد تشيتشينيا، لكن مريدين آخرين بقوا في كازاخستان؛ إذن، هذه الطريقة ليست طريقة قوقازية صرفة.

٤ - احصاء مريدي الطرق:

لا تقديرات دقيقة بالنسبة إلى آسيا الوسطى، كما هي الحال بالنسبة إلى القوقاز. ثمة بيانات غائمة قدمها ممبتياليف في شأن قرغيزيا، وبازاريف في شأن أبناء القراكلبك، وسيدبييف في شأن اوزبكستان، وقديروف في شأن طاجيكستان. ووفقاً لهذه البيانات، يمثل مريدو الطرق و«الملاي غير المسجلين» أكثرية «المتدينين المتعصبين»، يضاف إليهم «المتدينون اقتناعاً وبحسب التقليد»، مما يشكل متوسطاً أدنى هو ١٠ في المئة من الـ ٣٠ مليون نسمة الذين هم السكان المسلمون لآسيا الوسطى، أي ما يعادل ٣ ملايين. وهذا الرقم مبالغ فيه كثيراً على الأرجح، لكن يجب أن نتذكر أنه من الصعب جداً اليوم تحديد ماهية المريد التابع لطريقة صوفية. وفي غالب الأحيان، يعتبر جميع أفراد عشيرة ما من المريدين (بمن فيهم الأعضاء في الحزب الشيوعي).

٥ - عمل الطرق:

تتفق كل المصادر السوفياتية على أن هذا العمل يجري على مستويين: روحي وسياسي.

أ - النشاط الروحي:

لا مغالاة في القول أن الطرق في آسيا الوسطى أنقذت الإسلام كعقيدة، وتقليد ثقافي، ونمط حياة. كيف؟ إن السلطات السوفياتية نفسها تقدم معلومات كثيرة حول:

- المدارس السرية حيث تلقن العربية وأصول الدين. والمراجع كثيرة بالنسبة إلى كل الجمهوريات.
- أماكن العبادة السرية.

«المشايخ غير المسجلين» الذين يفقهون شيئاً من العربية ولديهم القدرة على تنظيم الشعائر الضرورية الخاصة بالختان والزواج والدفن.

- الأماكن المقدسة التي هي مراكز حقيقية للحياة الروحية يمارس فيها الذكر وصلاة الجماعة. وتلجأ السلطات باستمرار إلى اغلاق هذه الأماكن التي يعاود المؤمنون فتحها. ومن هذه الأماكن المشهورة، نذكر تحت سليمان في أوس (٥٠ الفاً من الحجاج لمناسبة عيد الفطر في ١٩٥٠)، ومزارات الشيخ نجم الدين كبرى في قونية اورغينتش، والشيخ همداني في بيرم علي، والشيخ بهاء الدين النقشبندي في بخارى، والشيخ يوسف شارحي في دوشانبي، وسلطان سنجار في ماري الذي اعيد فتحه حديثاً بعد «ترميمه».

إلى هذه الأماكن المشهورة، يجب أن نضيف مئات غيرها هي موضع اجلال وتقديس أيضاً. وهناك فيض من الادبيات حول الأماكن المقدسة وظيفتها التنديد المستمر بهذه الظاهرة. وبما أن التدابير الادارية لا تكفي، تسعى السلطات إلى حظر أعمال الحج عبر انتزاع فتاوى من المفتين (فتوى ١٩٥٨ ضد تحت سليمان، وفتوى ١٩٥٩ ضد المزارات). لكن المفتين يجمعون عن التورط في السجال والقطيعة.

أخيراً، يقوم الدور الأساسي للطرق على الدعوة المستمرة أو «الدعاية المضادة». في الواقع، يفوق عدد الصوفيين عدد المحرضين التابعين لجهاز الدعاية والتحرير (الحكومي). وقد أمكن لزائر فرنسي في آذار ١٩٨٢، أن يلاحظ في مصلى بازار سمرقند داعية صوفياً وهو يلقي خطبة تلقى تجاوباً كبيراً، وذلك في حضور الميليشيا التي كانت تغض الطرف.

ب - النشاط السياسي :

إن وصف هذا النشاط يبدو أكثر صعوبة. ويشير كثيرون من المراقبين السوفيات إلى أن الطرق تسعى إلى انشاء دولة في الدولة، أو «مؤسسة» على هامش المؤسسة السوفياتية، شبه سرية ومناهضة في وضوح للنظام السوفياتي. بل يسجل بعض المراقبين أن الطرق في آسيا الوسطى - وأكثر منها في القوقاز - تمثل نوعاً من البديل لأحزاب سياسية معارضة. ونظراً إلى السرية الشديدة التي تحيط بالنشاط السياسي للطرق، واعتباراً للطابع الموجّه للمعلومات الرسمية

السوفياتية، يجب توخي الحذر الشديد في التقويم، وعلى الأخص يجب التذكر بأن المصادر السوفياتية تنزع إلى تشويه الجمعيات الصوفية عبر إلصاق كل الشرور بها واتهامها بكل الجرائم، أي الظلامية والتعصب والخيانة (لمصلحة الامبرياليين)، ساعية في الوقت نفسه إلى التقليل من شأن نفوذها بين المؤمنين.

هناك مروحة للمواقف داخل الطرق بين أقصى التشدد والرفض الكامل للعالم السوفياتي، وعقلية الممانعة غير الفاعلة. وإذا التزمنا «الطريق الوسط» في التقويم، يمكن تلخيص النشاط الدنيوي للطرق الصوفية في آسيا الوسطى عبر إيراد عدد من السمات:

- الانضباط الصارم يقدم على أنه سلوك يحتذى؛
- المالية الخاصة مع جمع الزكاة (على رغم انها غير قانونية)؛
- المحاكم السرية الصالحة لاصدار عقوبات على شكل غرامات، وحتى عقوبة الموت للخروج على المذهب في بعض الحالات وفي بعض الطرق (المتطرفة مثل الايشان)، وذلك على ذمة المصادر السوفياتية؛
- التعبئة الفكرية مدخلاً لـ «التسييس»، عبر التحريض الدائم والمستمر؛ ويتبين أن هذه التعبئة أكثر فاعلية من الدعاية والتحريض السوفياتيين، خصوصاً خلال حلقات الذكر الاسبوعية؛
- الرفض المطلق للنظام السوفياتي من جانب بعض الطرق (الحاج عويس والايشان)؛
- رفض الخدمة العسكرية؛
- هجر المدارس؛
- التخلي عن نظام الكولخوزات: الحاج عويس واللاشي اقامتا كولخوزات خاصة بهما بهدف العيش في منأى عن المجتمع الاشتراكي، وهو أمر أسهل مما يعتقد («آسيا الوسطى بعيدة عن موسكو») بدليل الأمثلة التي توفرها الصحافة السوفياتية؛

- دعاية «قومية» كثيفة (وهذا اتهام توجهه المصادر السوفياتية) عبر تمجيد الماضي وتعظيم المقاومة ضد الروس، والربط بين الديني والوطني، والحفاظ على روح الجهاد، ربما تكون النقطة الأخيرة الشكل الأخطر لنشاط الطرق في نظر السوفيات؛

أخيراً، في الحالات القصوى، اللجوء إلى «القرصنة السياسية»، مثل اغتيال رئيس وزراء قرغيزيا. لكن المصادر السوفياتية هي التي تتحدث عن هذه النقطة وتلح عليها.

ماذا يجب أن يبقى في الذهن مما تكشفه المصادر الرسمية السوفياتية وتشدد عليه؟

إذا توخينا الحذر الشديد، يمكن أن نحاول استخلاص ما يأتي: الجزء الأكبر من الدعاية المناهضة للدين استهدف الطرق (خلال السبعينات، ومطلع الثمانينات)، وكان القياديون المسؤولون ينددون بانتظام بخطر «الكهنوت» غير المسجل و«المتشيعين» و«المشايع المتعصبين» (تعبير مرادفة).

لماذا هذا القلق؟ يمكننا تقديم التفسير الآتي: نتيجة للنمو الديموغرافي، أخذت النسبة المئوية للسكان الأصليين تتصاعد سريعاً في آسيا الوسطى؛ هكذا نشهد «عملية تأصيل» لآسيا الوسطى ترافقها «إعادة أسلمة» للحياة الثقافية والاجتماعية. وواقع الأمور أن «الاسلام الموازي» المتمثل في الطرق الصوفية وليس الاسلام الرسمي، هو المستفيد من هذا التطور. وبالتلازم مع هذه الظاهرة، نجحت الطرق الصوفية، على ما يبدو، في التقاط التيارات الملتبسة لقومية محلية في بعض مناطق آسيا الوسطى (تركمانستان وقرغيزيا)، كما في شمال القوقاز.